

السياق القرآني: من سطوح الحركة إلى أعماق النفس

أ.د. إدريس مقبول

قسم اللغة العربية، المركز الجهوي لمهن

التربية والتكوين، مكناس، المغرب

makboul_driss@yahoo.fr

ملخص:

المقالة تناقش قضية الإنتاجية الدلالية لنوعين من السياق في القرآن الكريم؛ السياق الحركي والسياق النفسي، والهدف من وراء ذلك، هو المساهمة في بناء فقه قرآني، يكشف قضايا الباطن الإنساني المركبة (السيكولوجيا) ولغته (غير اللفظية) أو الجسدية (الكنزيا)، وهو ما قصدناه بالكلام عن سطوح الحركة وأعماق النفس، فالقرآن الكريم رسالة نزلت لتنظيم عوالم الإنسان الظاهرة والباطنة، وترتيب وجوده في هذه العوالم، ووضع أطر وقواعد لهذا الوجود ليتمتع بالاستقرار والتوازن وبيتعد عن الميلان والانحراف.

بالنسبة لنا اللسانيات والسيميائيات هنا أدوات للكشف والحفر، نحاول أن نختبر قدراتها التفسيرية وإمكاناتها التوليدية، وفتق مسارات للفهم والوعي المتجدد لنص الوحي.

Abstract :

This article discusses the issue of semantic productivity of two types of context in the Holy Quran; the kinetic context and the psychological context. The aim behind this is to contribute to building a Quranic jurisprudence that reveals the complex issues of the human interior (psychology), and his language (non-verbal) or body communication (kinesics), which is what we meant by talking about the surfaces of movement and the depths of the soul. The Holy Quran is a message that was revealed to organize the apparent and hidden worlds of man, arrange his existence in these worlds, and set frameworks and rules for this existence so that it enjoys stability and balance and stays away from inclination and deviation.

For us, linguistics and semiotics are tools for discovery and excavation. We try to test their interpretive capabilities and generative potential, and open paths for understanding and renewed awareness of the text of revelation.

تقديم:

هناك فرضية يناقشها (JohnArnold, 1878, 240) تُعتبر دلالة السياق وغيرها من المفاهيم البلاغية التي نشأت في مرحلة تأسيس علم المعاني، وانتقلت إلى ميادين الأصول، هي من المفاهيم الأصيلة والتي حَرَّض على ظهورها تأملات العقل المسلم في القرآن الكريم.

ودلالة السياق هي الشرط الذي يمكن من الفهم الشامل لرسالة وروح القرآن كما يرى (Khan, 2010, 75)، لأنه يتناول اللغة والخطاب في صلته بالحياة، ويرى تمام حسان أن دلالة السياق تنوع مجاريها بحسب طبيعة القرينة السياقية، فهي تستهل باللغة لتصل إلى حيثيات الحياة المحيطة

بالخطاب، تبدأ من اللغة من حيث بناها الصرفية وعلاقتها التركيبية ووحداتها المعجمية، وتضم الدلالات بأنواعها من عرفية وعقلية وطبيعية، كما تشمل على ما نسميه المقام بعناصره الحسية والنفسية والاجتماعية بما فيها العادات والتقاليد ومأثورات التراث، وكذلك العناصر التاريخية والجغرافية، مما يجعل قرينة السياق أعظم القرائن بحق؛ لأن ما يميز الاستدلال بها على المعنى، والاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية كالبنية والإعراب والربط والترتبة والتضام هو الحد الفاصل ما بين (الحرفي والوظيفي) أو لنقل بين الاعتداد بحرفية النص والاعتداد بروح النص. (حسان، 1992، 221).

ويقتضي فقه القرآن فقه أنواع متعددة من السياق، ينفع كل واحد منها في إضاءة عالم من عوالم الدلالة، ومنها السياق الحركي والسياق النفسي. فلبنداً بالسياق الحركي، ولنبين وزنه ووظيفته مع أثره في إنتاج دلالات متجددة لمن يقبل على القرآن بالنظر والذوق.

السياق الحركي: إشارات الجسد أو الخطاب الموازي

هو السياق "الحي" الذي يرافق إنجاز الخطاب، وفيه يمكن أن نجد ما يسمى بالدلالة غير اللفظية، ويتضمن جزءاً من مقتضيات الأحوال ووضعيات المتخاطبين وحركاتهم الجسدية "الموازية" لخطابهم اللفظي⁽¹⁾،

⁽¹⁾ - يراجع للتعرف أكثر على الخطاب غير اللفظي في القرآن الكريم: المسيهيج، خالد محمد، لغة الجسد في القرآن الكريم، ط1، 2020. منشورات دار لوتس للنشر والتوزيع. العبد، محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، 1994، وعتيق، عمر، لغة الجسد في القرآن الكريم، (المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عمان)، مج9، ع1، 2013.

أو لنقل يتضمن لغة الجسد أو اللغة الصامتة بتعبير الانثروبولوجي واللساني (Edward Hall، 1990).

وفي الممارسة التراثية العربية اتفق الجاحظ والرماني وابن رشيق على "أن مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت، وقيل: حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان" (ابن رشيق: 1401، 309/1)، وقد جعل (ابن وهب، 119) الإشارة والحركة مرادفة للإيجاز، فنقل عن بعضهم في تعريف البلاغة أنها "الاكتفاء في مقامات الإيجاز بالإشارة، والاقتدار في مواطن الإطالة على الغزارة".

ويشترط اللسانيون مبدأ المسافة الضيقة بين السياق اللفظي والسياق الحركي، وهو أحد المبادئ التي تساعد على فهم الخطاب، وتقترب المسافة بين السياقين اللفظي والحركي كلما ألبست العناصر اللغوية المشكلة للخطاب اللغوي ما يناسبها من الحركة الإشارية على المستوى التواصلي.

وهذا الذي ذهب إليه اللسانيون المعاصرون التفت إليه فقهاء الإسلام في سياق استدلالهم مختلف ووضعوا قاعدة ذهنية مقتضاها أنه "إذا اجتمعت الإشارة والعبارة، واختلفت موجههما غلبت الإشارة" (الزركشي، 80/1)، فإذا تم تعريف شيء ببيان أو صافه في مجلس وأشير إليه حين الوصف، فإذا تطابق الوصف مع الإشارة، فالوصف تأكيد للإشارة، أما إذا تعارض الوصف مع الإشارة، فالأخذ يكون بما تفيده الإشارة، فهي أبلغ وأقوى، لأنها بمنزلة وضع اليد على الشيء، ويحصل بها كمال التمييز (السيواسي، 2016، 343/3).

ومن عناية القرآن بالسياق الإشاري الحركي ما ورد في قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام ﴿فَأشارت إليه﴾ [مريم: 29]، عقب سؤالهم واستنكارهم، فقد فهم قوم عيسى عليه السلام حركتها وإشارتها التي تقول

"أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه" (الزمخشري، 15/3)، ولهذا جاء جوابهم (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) [مريم:29]. قال (ابن الجوزي، 1422، 129/3): "أشارت أي أو مات إليه، أي: إلى عيسى فتكلم، وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلموه. وكان عيسى قد كلمها حين أنت به قومها وقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما أشارت أن كلموه، تعجبوا من ذلك".

في كثير من الأحيان يُصور القرآن السياق الحركي المصاحب للتفاعلات الحوارية، وينقله للقارئ حتى يتصوره ويدرك مداه ومبلغ تأثيره في تجلية الصورة التي غابت عنه ولم يشاهدها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو﴾ [الإسراء:51]، وهو سياق استهزائي كما فهمه (البيضاوي، 258) و(أبو حيان، 61/7)، يحكي فيه القرآن من خلال حركة الرأس سخرتهم من خلال السياق الحركي الذي تترجمه حركة الرأس الخاصة من أعلى إلى أسفل لا تعبيرا عن الرضى والموافقة كما تفيد دلالتها المباشرة، وإنما دلالتها الفرعية كما جرت في عادة من يستخف بشيء أو فكرة، وهذا ما أشار إليه (أبو زيد، 17) في جمهرة العرب، فقد ساق قوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾، وقال: "أي يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء".

وتستحيل المحكيات عن طريق استعراض السياق الحركي وكأنها حاضرة، وكأننا نعيشها، وقد تكون الصورة الحركية غير محكية، وإنما يستهدف النظم القرآني إلى تنبيرها وتبئيرها عن طريق ما ينقله القرآن من الحركة الجسمية، ولا يخفى ما في ذلك من تمكينها في النفس وتثبيتها في الذهن، من ذلك قوله تعالى في تصوير سياق يوم القيامة ﴿إنما يؤخرهم ليوم

تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعي مرؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴿ [إبراهيم: 43]، فسلط الضوء عبر ثلاث كنايات على حركة العيون ووضعية الرؤوس في لحظة فارقة، لتصوير أبصار الظالمين يوم القيامة شاخصة مفتوحة مبهوتة لا تطرف من شدة الهلع والخوف، ويتعمق الذهول بنقل حركة الأعناق الممدودة يقادون كما تقاد الدواب من أعناقها. وقد يكتفي النظم القرآني بإبراز السياق الحركي فقط للدلالة على معنى بلاغي، وقد تقترن الحركة الفعلية للأعضاء الجسمية بالعبارة اللفظية للقصد إلى تجلية المشهد، وتقريره وترسيخه في الذهن، كل ذلك بحسب ما يتطلبه الحال والمقام (هنداوي، 1416، 45).

ففي قوله تعالى ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجون عقيم ﴾ [الذاريات: 29]. حكى القرآن السياق الحركي، وفي جملته تنعكس الحالة النفسية لزوجته سيدنا إبراهيم عليه السلام (السيدة سارة) من سماعها بشارة الضيوف وكلامهم عن حملها وهي العجوز، يقول (الرازي، 28، 177): "أَيُّ أَقْبَلَتْ عَلَى أَهْلِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي خِدْمَتِهِمْ، فَلَمَّا تَكَلَّمُوا مَعَ زَوْجِهَا بَوْلَادَتِهَا اسْتَحْيَتْ وَأَعْرَضَتْ عَنْهُمْ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِلَفْظِ الإِقْبَالِ عَلَى الأَهْلِ، وَلَمْ يَقُلْ بِلَفْظِ الإِدْبَارِ عَنِ المَلَأِكَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: فِي صِرَّةٍ أَيْ صَيْحَةٍ، كَمَا جَرَتْ عَادَةُ النِّسَاءِ حَيْثُ يَسْمَعْنَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِنَّ يَصْحَنَ صَيْحَةً مَعْتَادَةً لَهُنَّ عِنْدَ الاستِحْيَاءِ أَوْ التَّعَجُّبِ".

وفي (صكت وجهها)، نقل (النحاس، 1421، 163/4) في تفسير هذا الجزء من السياق الحركي "ضربت جبهتها تعجبا"، وإنما جاءها التعجب من مناقضة البشارة لما هو عليه حالها من الكبر والعقم.

وضوّر القرآن الكريم السياق الحركي المتصل باليد وبأصابع اليد للدلالة على معاني متعددة، كلها يدخل بحسب (Marcel Danesi، 2018)، أستاذ السيميائيات بجامعة طورنطو، ضمن البلاغة البصرية، ويمكن أن نذكر منها:

- دلالة الرعب: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُومَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة:19]

- دلالة الغيظ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران:119]

- دلالة الندم والحسرة: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ خَلِيلًا﴾ [الفرقان:27]

- دلالة الغدر والبطش: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة:11].

- دلالة الخيبة: ﴿كَبَّاسُطٌ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد:14].

- دلالة البخل: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:29]

كما صور القرآن أيضا السياق الحركي المتصل بالعين، وهي أكثر أجزاء الوجه تعبيراً، وفي العادة ترافق حركتها بشكل خاص طبيعة الوضعيات التواصلية اللفظية، فتدل على ما يلي:

- الدلالة على التواطؤ: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المطففين:30].

- الدلالة على الاحتقار: ﴿ولا أقول للذين تنردمري أعينكم لن يؤتيهم الله

خيراً﴾ [هود: 31]

- الدلالة على الإعجاب: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أنزواجا منهم زهرة

الحياة الدنيا لتفتنهم فيه﴾ [طه: 131].

- الدلالة على الالتزام واللزوم: ﴿ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة

الدنيا﴾ [الكهف: 28]

- الدلالة على الاختلاس والاستراق: ﴿ينظرون من طرف خفي﴾

[الشورى: 45]

- الدلالة على التأثر والإيمان: ﴿وإذا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من

الدمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: 183].

- الدلالة على الخيانة: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: 19]

- الدلالة على الخشوع: ﴿خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم

جراد منتشر﴾ [القمر: 7].

- الدلالة على الحياء: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [النور: 30]

- الدلالة على الحزن والحسرة: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا

أجد ما أحملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾ [التوبة:

92]

- الدلالة على الذهول: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ [إبراهيم:43]
- الدلالة على الزيغ: ﴿واذ مراغت الأبصار﴾ [الأحزاب:10]
- الدلالة على الخوف: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ [الأحزاب:19]
- الدلالة على الاطمئنان: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾ [طه:40]
- الدلالة على الحسد: ﴿وإن يكاد الذين كفروا لينزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ [القلم:51].

ويتعزز السياق الحركي في القرآن الكريم بما يوفره سياق آخر هو السياق النفسي الذي يعتبر ركيزة من ركائز الكشف عن المعنى بما يوفره من عناصر عاطفية وانفعالية لا تنفصل عن نظام اللغة القرآني.

4.3. السياق النفسي: برنامج المشاعر لترجمه اللغة

ويقصد به ما رافق التصوير القرآني للمشاهد والمواقف والقيم من حالات نفسية للمشاركين في صناعة الأحداث أو المتلقين لخطاب الوحي الإلهي أو المعترضين عليه أو غير ذلك مما يتمي لدائرة المعطيات/الحالات النفسية والشعورية والعاطفية التي لا يُستغنى عنها في عمليات فهم لغة القرآن الكريم، وهي جزء من موضوعات علم النفس اللغوي كما يشير (Samuel Zinner، 2011، 13)، وتسميه (Rebecca Sachs.N، 2012، 111) أستاذة اللاهوت، أثناء حديثها عن الاستجابات العاطفية ببرنامج المشاعر المتواري خلف اللغة المقدسة، حيث اللغة هي

تعبير عن حالات نفسية وذهنية ومزاجية تجد طريقها خارج الذات عبر الخطاب، فنحن حين نعالج النص إنما نكون إزاء قراءة للعلاقات الودية والندية بدرجاتها وألوانها في تفاعلها اللطيف والعنيف عبر سياق يعلن عن نفسه انطلاقاً من أفعال اللغة، مثال ذلك في القرآن الكريم:

سياق الألم: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ، فَإِنَّهُ يَأْمِنُ كَمَا تَأْمِنُونَ

وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [النساء:104]، وهو سياق مواساة وتشجيع وحفز على الصبر على الآلام التي تلحق المؤمنين جراء وقوفهم في وجه الباطل، فليس ما يكابدون كما قال (الزمخشري، 561/1) من الألم مختصاً بهم، إنما هو أمر مشترك بينهم وبين أهل الباطل، يصيبهم كما يصيب مناوئهم، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون، فالمؤمنون أولى بالصبر على الألم لأنهم أولى منهم بالصبر لما يرجونه من الله، وهو سر قوتهم والقيمة المضافة التي تصنع الفرق، فالمؤمن يطلب لقاء الله ويؤمن بالآخرة والحياة الأبدية خلافاً لمن جعل مبلغه من العلم الحياة الدنيا، والآخرة هنا ليست مجرد طور في المستقبل الإنساني، وإنما أساس نظام أخلاقي يوجه الحياة الدنيا وحركة الإنسان فيها ومشاعره فيها، أو لنقل الآخرة باعتبارها الغاية النهائية لأفعال هذا العالم، وهي آخرة تنكشف فيها الأبصار ويبصر فيها الإنسان حقيقة الأمور وتظهر فيها القيمة الحقّ لكلّ شيء وينجلي فيها ما كان مستتراً، مما يجعل الإنسان في تجربته الحياتية لا يتراخى بالخروج على هذا النظام الأخلاقي، ويجتهد أن يكون له في تجربته هذه تقدير حكيم يستطيع به أن يمنح للأشياء قيمتها وحقيقتها.

إن الأعمال الباطنة والمشاعر العميقة ومنها الآلام "ظاهرة إنسانية تشترك فيها الفطرة البشرية كلها، سواء كانت مؤمنة أم كافرة" (الملقي، 2001، 50)،

وإنما يميز الكينونة المسلمة إيمانها بالله وبما وراء الألم من فكرة الاختبار والابتلاء الذي يعيد صياغة تجربة الألم نفسها كما يقول (إقبال، 2002، 49)، ويرتقي بها لتصل مرتبتها في تصفية النفس الإنسانية من المشاعر الغليظة والأحاسيس الهابطة.

المؤمن في واقع الحال يعامل الآلام في هذه الدنيا على أنها أقدار اختبارية لقدرة الكائن على التحمل والصبر، من غير أن يمنع الكينونة حقها في بثها خصوصا حين يتعلق الأمر بمقامات التضرع والانكسار بين يدي المولى عز وجل كما قال إقبال (النجار، 2011، 49):

دياي آلام تذيب حشاشتي لا تمنعوني أن أبلى جروحي
سياق الألم (تألّمون) في القرآن يتصل بمعنى الرجاء (ترجون) أي تتطلعون، فهو سياق متصل بكل أطوار الوجود وفصول التدافع بين الخير والشر داخل النفس الإنسانية وفي معترك الحياة، والمسلم الحقيقي يناضل يوميا من أجل البقاء على الطريق الصحيح، وهو يعي جيدا أنه يمضي في معركة متلاحقة بين الشر والخير، وبين الصواب والخطأ، وكلما ارتفعت يقظته نحو الأعمال والمواقف السيئة كانت استقامته أعظم.

- سياق الحزن والشكوى: ومنه قوله تعالى: ﴿إنا أشكوبني وحزني إلى

الله﴾ [يوسف: 86]، حيث يخبر يعقوب عليه السلام وقد بلغ به الحزن مبلغه لفقده ولده يوسف عليه السلام أنما تكون الشكوى لله وحده، إليه المشتكى "عند كل نائبة تنوبك؛ فإنه أكرم مسئول؛ وأقرب مدعو" (ابن عبد ربه، 1401، 155/3). قال ابن الأثير مشيرا إلى السياق النفسي: "البث والحزن بمعنى واحد، وإنما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به، وتكاثر سهامه النافذة في قلبه" (ابن الأثير، 1979، 98).

وسياق الحزن بلا شك يرافقه تصوير حاجة الحزين لمن يسمعه ويشاركة حزنه ويخفف عنه، والقرآن يوجه الحزين ليضع أحماله وأثقاله عند باب الكريم سبحانه، فهو وحده من تنفع عند أعباه الشكوى، فإنه القدير على تخفيفها وإزاحتها عن كاهله.

يرى الأستاذ (مالك بدري، 1442، 156) الأخصائي في علم النفس الإسلامي أن السياق يحكي وصول الحزن والأسى أشده بعد أن تراكمت على يعقوب المصائب والابتلاءات، فأعدت من جديد شدة حزنه على فراق يوسف بصورة أشد من ذي قبل، فكانت مصيبته الجديدة بحرمانه من أصغر أبنائه بنيامين بمثابة من ينكأ جرحه بعد أن بدأ في الاندمال، اشتد عليه هذا الأسى حتى ابيضت عيناه من هذا الحزن المكظوم.

وقد استوحى (ابن عبد ربه، 1979، 98) هذا السياق لقوته في قصيدته

فقال:

بَكَيْتَ حَتَّى لَمْ أَدْعِ عَبْرَةً	إِذْ حَمَلُوا الْهُودَجَ فَوْقَ الْقُلُوصِ
بِكَاءِ يَعْقُوبٍ عَلَى يَوْسُفٍ	حَتَّى شَفَى غَلَّتَهُ بِالْقَمِيصِ
لَا تَأْسَفِ الدَّهْرَ عَلَى مَا مَضَى	وَالقَّ الَّذِي مَا دُونَهُ مِنْ مَحِيصِ
قَدْ يَدْرِكُ الْمَبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ	وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ

إن سياق سيكولوجيا الحزن الناجم عن الفقد - حسب (Anthony Johns، 2002، 63) الذي درس سياقات الحزن في سورة يوسف - هو الوجه الآخر لحياة كلها ضغوطات واختبارات متوالية، ولهذا حين يتجه الإحساس بآلام الحياة إلى الله فإننا حينها نكون في الطريق السليم، ومن يتصور أن العيش يكون في هذه الحياة مثاليا بلا آلام فإنه واهم، إذ هي لم

تَصْفُ يوماً لأحد إلا وتكدرت، وغاية المؤمن تفويض أمره لله تعالى فيما قَدَرَهُ وَقَضَاهُ ﴿ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: 44].

- سياق الغضب: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَمَا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: 150]، قال (الثعالبي، 131): "الأسف حزن مع غَضَبٍ" واستدل بأية الأعراف السالفة، والتي يحكي فيها القرآن سياق صدمة موسى من انقلاب بني إسرائيل إلى الوثنية بعد أن تركهم على التوحيد، فقد ذهب موسى لميقات ربه، وعندما عاد وجد أن قومه انتقلوا لعبادة العجل، فلم يتمالك نفسه وثار غضبه من هول ما رأى، وألقى الألواح التي كان يحملها. إنه سياق نفسي مركب تمازج فيه الغضب بالأسف، و"الإنسان إذا حزن لمصيبة تصيبه فكأنه على القدر المقدور حيث لم يجر بمراده والغضب على المقدور مما يستغفر منه" (العكبري، 1997، 102/1)، وقد ورد في شعر المتنبي جمع الغضب والحزن في قوله:

جزاك ربك بالأحزان مغفرةً فحزن كل أخي حزن أخو الغضب
ونقل (الكفوي، 114) في الكليات في كلامه عن سياق الآية أن ابن عَبَّاسٍ سئِلَ عَنِ الْحَزْنِ وَالْغَضَبِ فَقَالَ: مَخْرَجُهُمَا وَاحِدٌ وَاللَّفْظُ مُخْتَلَفٌ، فَمَنْ نَازَعَ مِنْ يَقْوَى عَلَيْهِ أَظْهَرَ غِيظًا وَغَضْبًا، وَمَنْ نَازَعَ مِنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَظْهَرَ حَزْنًا وَجَزَعًا.

وسياق القرآن يصور الغضب كما لو كان سلطانا يثور ثم يسكت، وهو فوق طاقة موسى، ولهذا "عذره الله سبحانه به ولم يعتب عليه بما فعل إذ كان مصدره الغضب الخارج عن قدرة العبد واختياره فالمتولد عنه غير منسوب إلى اختياره ورضاه به" (ابن قيم الجوزية، 1408، 34).

وسياق الغضب في القرآن يتميز فيه الغضب المنسوب لله تعالى والغضب الذي يصدر عن خلقه، وقد ذكر (ابن تيمية، 1421، 29) أن الله تعالى وصف نفسه بالغضب فقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكُفِّرَهُمْ﴾ [الفتح:6] ووصف عبده بالغضب في قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ وليس الغضب كالغضب، ومن أغضب الله خرج من ولايته، والغضب النفسي غضب إنساني محض، أما غضب الله تعالى فمجاز منزه عن الكيف والنفس.

- سياق الخوف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ نَزَّاعَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:10]، فزاغت الأبصار بمعنى شخصت، وقيل مالت وانحرفت كقول بن زكري (جبران، 2007، 219):

واحفظ حديث الحسن عمن قد من آيه الكبرى وما زاغ البصر وبلغت القلوب الحناجر لشدة الرعب والخفقان (النيسابوري، 1415، 668/2)، يقول (كوام ماكنزي، 1434، 6) "غالبا ما ينجم القلق والخوف عن التعرض للضغط، فهما شعوران يتتابان المرء عندما يكون في وضع حرج أو يشعر بأنه في خطر ما".

سياق الآية النفسي يذكّر بحالة الذعر التي أصابت المؤمنين في معركة الخندق التي عانوا فيها من الحصار الخانق، حيث صاروا بين فكي كماشة؛ اليهود من ورائهم والكفار من أمامهم ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب:10]، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول: فقد بلغت القلوب الحناجر قال: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا (السيوطي، 573/6)، فكان العلاج هو توجيه القلوب الواجفة الخائفة إلى التعلق بالدعاء والتبتل

وطلب المدد الإلهي والذِّكر، فإنَّ المَدَدَ مع الوَرْدِ، وكما يقال من لا ورد له لا وارد له، والوارد هو ما يمكن أن يدخل السكينة على الأفتدة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) [الرعد: 28]. قال الشاعر (عمر اليافي، 1893، 34):

فَتَرَكَ الْوَرْدَ يَقْطَعُ فَيْضَ مَدِّ من البحر الذي بالفيض زاخر
فليس سعادة الدارين إلا بذكر الله فالزمه وثابر
وكن بالخوف راجي العفو فضلاً وغفراناً فإنَّ الله غافر

طبيعة الخوف أنه كما يمكنه أن يتقلص بحصول أسباب الأمان يمكنه أن يتمدد ويُضَاعَفُ معاناة الخائف ويزيد من إرباك بنيته النفسية وبيعثرها في حالات الخوف الأقصى كما يقول الباحث الأمريكي (Jeff Wise، 2009، 5)، وفي هذا الآية نجد السياق النفسي يعكس بلوغ الخوف ذروته فقد ذكر (النسفي، 1419، 20/3) أن الرئة إذا انتفخت "من شدة الفزع أو الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وقيل هو مثل في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة".

والخوف كما تقول الأخصائية (مارجيري ويلسون، 1984، 47) "يدفع القلب كي يستعد بأقصى طاقاته لمواجهة عمل عنيف مرتقب، فأن يعيش الإنسان تحت تأثير خوف لا ينقطع، معناه أن القلب يتحمل عبئاً مضاعفاً طوال الوقت".

ويستمر السياق النفسي في التمدد والكثافة ليصل إلى توصيف الحدود البعيدة لآثار الخوف على كيان المؤمنين وقناعاتهم التي تشكل أهم ركن في جانبهم الاعتقادي الذي بات مهزوزاً (تظنون بالله الظنونا)، إذ شكل لديهم الوضع الضاغط من كل جانب ما يشبه (الزلزال)، يقول تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ، هَذَا الَّذِي ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَمَنْ لَمْ يَلْزَمُوا لَمْ يَلْزَمُوا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11]، وفي تزلزل

النفوس وتململها لما يعرض لها من الخوف قال الشاعر (ابن قلاقس، 2001، 12):

وَاسْتَحْفَتَهُمُ الْمَقَادِيرُ حَتَّى زَلَزَلُوا حَيْثُ يَمَّمُوا زَلْزَالًا

وقد وقف (ابن عطية، 372/4) عند الوضع النفسي مشيراً إلى انقطاع الأنفاس بالخوف وهو ما يجده الخائف القلق من "الهلع من ثوران نفسه وتفرقها شعاعاً ويجد كأن حشوته وقلبه يصعد علواً لينفصل".

- سياق الامتلاء الفارغ: شاهده قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا

وَيَجْبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازِرَةٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188]، في هذا السياق النفسي يصف القرآن حالة دقيقة ومعقدة جداً مقتضاها حب الظهور وحرص بعض النفوس الإنسانية على حب المحمودة ونيل الثناء ولو على حساب غيرهم والركوب على إنجازاتهم، والتظاهر بغير الحقيقة بمظاهر العز والشرف والقوة، كما قال الشاعر ابن شرف: كالهريح يحمي انتفاخاً صولة الأسد (ابن خلدون، 195).

وهي حالة تقع في العادة حين نسقط من حساباتنا قاعدة بذل الجهد والمكافحة كشرط للنجاح، وهو ما تكون نتيجته الحتمية اتساع رقعة المتسلقين والكسالى في المجتمع، مع أن أصل الإيمان أن يدفع صاحبه إلى أن يقدم الأفضل والأكمل والأأنف وأأن يتنافس فيه بجهد الذي يؤجر عليه.

وقد سميناها بسياق الامتلاء الفارغ لأن موضوعه بشرٌ يطلبون الثناء على فراغهم وسوء فعلهم في الحياة، فيتوهمون أنهم على شيء، ولا يأتي منهم إلا الشر، وقد أشار (ابن عاشور، 193/4) إلى هذا السياق الذي ارتبط بأهل الكتاب دون أن يخصهم في الجوهر، فإن الحديث سيق عنهم ببيان تدني أخلاقهم بعد أن بين القرآن اختلال أمانتهم في الدعوة إلى الدين وتبليغه،

وقد جاء السياق نكيرا على حَالٍ مَنْ يَفْعَلُ الشَّرَّ وَيَقِفُ مَوَاقِفَ الْخِسَّةِ ثُمَّ لَا تَحْدِثُهُ نَفْسُهُ بِالْحَيَاءِ وَالْإِنْكَسَارِ لِمَا فَعَلَ أَوْ تَطَلَّبِ السِّتْرِ عَلَى شَنِيعِ فَعْلِهِ، بَلْ يَتَنَطَّعُ وَيَتَطَاوَلُ فَيَتَرَقَّبُ مَدِيحَ النَّاسِ وَثَنَاءَهُمْ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِ، وَتَتَشَوَّفُ نَفْسُهُ الْمَرِيضَةُ إِلَى الْمَحْمَدَةِ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ النِّفَاقِ، وَ"الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصْلِحُ لَهُ الْخِطَابُ".

سياق الامتلاء الفارغ ينبه العقل المؤمن إلى قيمة الإخلاص التي تتجسد في أن يصل خيرنا ونفعنا للبشر دون أن يعلموا أننا أصحابه، وقد كان الشافعي رحمه الله يقول: "وددت أن الخلق تعلموا هذا- يقصد علمه- على أن لا ينسب إلي منه حرف" (النووي، 28/1).
وفيما أتينا عليه من الأمثلة السياقية النفسية دليل على ما لهذا الضرب من السياق من دور توجيهي نحو المعنى.

المصادر العربية:

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).
- بدري، مالك، الجوانب العاطفية في حياة الأنبياء: كشف وتأملات نفسية، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1442هـ).
- البيضاوي ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار المعرفة، ط2، 2017).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، التدمرية، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، محمد بن عودة السعوي، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط6، 1421هـ).

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (بيروت: إحياء التراث العربي، ط1، 1422هـ).
- جبران، محمد مسعود، مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه وتحقيق ديوانه، (مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، 2007).
- ابن الجوزي، أبو الفرج، زاد المسير في علم التفسير، عبد الرزاق المهدي، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ).
- حسان، تمام، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1992م).
- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، 1420هـ).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر).
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر، تونس، 1984).
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، ديوان ابن عبد ربه، (مؤسسة الرسالة)، 1979.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أبو عمر، العقد فريد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1401هـ).
- عتيق، عمر، لغة الجسد في القرآن الكريم، (المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عمان)، مج9، ع1، 2013.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 1، 1422هـ).

- أبو القاسم النيسابوري، نجم الدين، إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق حنيف بن حسن القاسمي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1415هـ).
- ابن قلاقس، نصر بن عبد الله، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001).
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، تحقيق محمد عفيفي، (بيروت: المكتب الإسلامي، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1408هـ).
- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي محمد البجادي، (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).
- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ).
- ابن رشيقي، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الجيل، ط5، 1401هـ).
- الزركشي، بدر الدين، المنشور في القواعد، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995).
- السيواسي، كمال الدين، شرح فتح القدير، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2016).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الدر المنثور، (بيروت: دار الفكر).

- العبد، محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، 1994.
- العكبري، أبو البقاء، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق عمر فاروق الطباع، (دار الأرقم، ط1، 1997).
- الكفوي، أبو البقاء، الكليات، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1419هـ).
- المسيهيج، خالد محمد، لغة الجسد في القرآن الكريم، منشورات دار لوتس للنشر والتوزيع. ط1، 2020.
- مكنزي، كوام، القلق ونوبات الذعر، ترجمة هلا أمان الدين، (كتاب العربية، ع108، الرياض، المملكة السعودية، 1434هـ).
- الملقى، هيام، التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والاعتراب الثقافي: تجديد الصلة بالله، (دار الفكر المعاصر، 2001).
- النجار، فهمي، الشاعر والمفكر الإسلامي محمد إقبال: وصلته الثقافية بالعالم العربي.. تأثيره وتأثيره، (العبيكان للنشر، 2011).
- النحاس، أبو جعفر، إعراب القرآن، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ).
- النسفي، أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بدوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، 1419هـ).
- النووي، أبو زكريا محيي الدين، المجموع شرح المذهب، (بيروت: دار الفكر).
- ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق، البرهان في وجوه البيان، تحقيق محمد العزازي، دار الكتب العلمية.
- اليافي، عمر بن محمد، ديوان اليافي، (المطبعة العلمية، 1893).

- ويلسون، مارجيري، طريقك إلى الشباب الدائم، (مصر: دار النشر الهلال، ط1، 1984).

- هنداوي، عبد الله، البلاغة القرآنية في الإشارة والحركة الجسمية، (مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1416هـ).

-Arnold, John Muehleisen, Der Islam nach Geschichte: Charakter und Beziehung zum Christentum, Gütersloh : Bertelsmann, 1878.

-Danesi, Marcel, Empirical Research on Semiotics and Visual Rhetoric, IGI Global, 2018.

-Hall, Edward Twitchell The Silent Language, Doubleday, 1990.

-Jeff Wise, Extreme Fear: The Science of Your Mind in Danger, St. Martin's Publishing Group, 2009.

-Johns, Anthony H. the Quranic presentation of the Joseph story: naturalistic or formulaic language?, in G. R. Hawting and Abdel-kader A. Shareef) edit), Approaches to the Qur'an, Routledge, 2002.

-Khan, Arif Mohammed, Text and Context: Quran and Contemporary Challenges, Rupa & Company, 2010.

-Mohammad Iqbal, "Islam as Moral and Political Ideal", in Charles Kurzman, Modernist Islam, 1840-1940: A Sourcebook, Oxford University Press, 2002.

-Norris, Rebecca Sachs, Religion, Neuroscience and Emotion: Some Implications of Consumerism and Entertainment Culture, in David Cave and Rebecca Norris eds, Religion and the Body: Modern Science and the Construction of Religious Meaning, Brill, 2012.

-Zinner, Samuel, Christianity and Islam: Essays on Ontology and Archetype, The Matheson Trust, 2011.

